(٦)
بعد الحوار:
مـا العـمـل؟!

هذا السؤال يواجهك به الشباب، ويواجهك به الرجال والنساء، ويواجهك به، أحيانًا، الكهول والشيوخ، كلما سمعوا أو قرءوا كلامًا متعلقًا بدور الإسلام في إصلاح حال الناس وأوضاع حياتهم.

وكثيرون من الذين يوردون هذا السؤال يعتبرون الأمر معجزًا وخارجًا عن الطاقة. فالدول العصرية ـ في رؤيتهم ـ تسيطر على كل شيء من التعليم إلى مصادر الرزق، ومن الإعلام إلى الوعظ والإرشاد الدينيين، ومن عوامل القوة التي تحتكرها الشرطة والجيش إلى ممارسة الرياضة والاستمتاع بوسائل الترفيه البريء. وتحيط الدول العصرية جهود الأفراد لاسيما ذوي الانتماء الديني الإسلامي، بوجه خاص، بقيود مانعة من العمل، حائلة بينه وبين الإثمار. فيدب اليأس والقنوط إلى أكثر النفوس، ويبقى حائرًا في القلوب وعلى الشفاه سؤال: **ما العمل؟**

وعندما يقرأ القارئون هذا النص عن «الإسلام والعصر» سَيَرِدُ على بال كثيرين منهم هذا السؤال نفسه. ولم أكن متنبهًا إلى هذه الحقيقة إلى

أن قرأتْ إحدى تجارب الطبع واحدة من الفتيات المنتظمات في العمل معنا في جمعية «مصر للثقافة والحوار» فجاءت تعيد أوراقي إليَّ، وأبدت بعض ملاحظاتها عليها، ثم سألتني: لكن بعد الذي عرفته من ذلك كله، ما الذي أستطيع، ويستطيع أمثالي، عمله؟؟

عندئذ بدا لي أنه من المناسب أن أجيب أصحاب هذا السؤال من القراء بما أجيب به ـ عادة ـ أصحابه ممن ألقاهم ويلقونني.

* * *

إن حاجة المسلمين إلى إحسان الحياة وفق قيم الإسلام وأخلاقه ونظمه التشريعية ـ أو ما أسميه ثقافة الإسلام ـ لا تقل عن حاجتهم إلى تقديم مزايا هذه القيم والأخلاق والنظم ـ أي الثقافة ـ إلى الناس كافة. سواء أكانوا يعيشون في المجتمعات الإسلامية الخالصة ـ على قلتها ـ في المجتمعات التي يغلب عليها المسلمون، أم في المجتمعات التي فيها أقلية من المسلمين وغالبية من غيرهم.

والحياة وفق قيم الإسلام وأخلاقه ونظمه سلوك عملي يقدم صورة مؤثرة صالحة للآخرين؛ وهي حياة غائبة ـ على وجه الإجمال ـ في الأنواع الثلاثة من المجتمعات.

* * *

نحن في المجتمعات الإسلامية الخالصة، والغالبة، نلاحظ انفصالاً هائلاً بين سلوك الناس وبين ثقافة الإسلام. لا يفلت من ذلك المتدينون المتمسكون بشعائر الدين ومظاهره، بل إن كثيراً منهم ينافسون غير

المتدينين، والمتخذين من الدين موقفًا عدائيًا، في بعدهم عما توجبه الثقافة الإسلامية ـ قيمها وأخلاقها وتشريعاتها ـ حتى إن سلوكهم يصبح سببًا في تنفير الناس من التدين، إن لم يكن من الدين نفسه.

إنك تجد الواحد منهم إذا تحدث بدا كأنه محارب غاضب وليس كأنه محاورٌ متفهم، وهو ناس أن أقرب الناس مجلسًا إلى النبي ﷺ يوم القيامة هم أحسنهم خلقًا (!) وترى بعضهم يحرصون حرصًا شديدًا على أناقتهم الشخصية ونظافة بيوتهم، فإذا سار في الطريق العام ألقى بالقاذورات والفضلات فيه غير عابئ بأنه يؤذي الناس، وغير متذكر أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وأن شغل طريق الخلق بما يؤذيهم ويثير ضيقهم واشمئزازهم ـ بالمقابل ـ سيئة. ويقود أحدهم سيارته فلا يكف عن محاولة تجاوز سيارات غيره، ولا يتورع عن سب من لم يفسح له الطريق وشتمه بأقذع الألفاظ، على الرغم من أن الشاتم المسرع بسيارته يحرص على مظهره الإسلامي المميز له عن غيره، لكنه يتناسى حق الطريق الذي هو من واجباته الاجتماعية في دينه. ويكون أحدهم مع أهله وأولاده في مكان عام وبدلاً من أن يمتعهم بصحبته، ويسعدهم بانعتاقهم من أسر البيوت الخانقة، تجده دائم التأنيب والنهر والتوجيه الذي لا يخلو من قسوة لكبيرهم وصغيرهم، وكأنهم في معسكر للتأديب والتهذيب والإصلاح لا في محاولة عائلية للترفيه عن النفوس التي ملَّت حتى كلَّت، أو كلَّت حتى ملَّت، كلاهما سواء (!!)

وكل ذلك، وغيره كثير، يشترك فيه الرجال والنساء والشباب والكهول؛ لأن المشكلة ليست مشكلة جنس أو سن ولكنها مشكلة

الفصام الواقع بين الإيمان وثقافته، وبين العمل والسلوك لا يبدو فيهما من أثر هذا الإيمان وأثر تلك الثقافة شيء يذكر

إن المتدينين الذين لا يطابقون بين سلوكهم بين الثقافة التي ينتمون إليها، ويعلنون هذا الانتماء، ويفخرون به، أحيانًا يستكبرون به على سائر الناس، هؤلاء هم أولى الناس بالإصلاح من أنفسهم، وبتعويدها الالتزام العملي في علاقاتهم مع سائر الخلق لأن الالتزام بالشعائر والمظاهر لا يغني عنهم شيئًا إذا لم يصحبه التزام في العمل والسلوك والعلاقات مع الناس.

وهذا عملٌ أولٌ؛ لكل امرئ منه نصيب يجب عليه فعله، وللدعوة إليه حق، على كل مدرك لأهميته، يجب على أداؤه.

***

ونحن، في المجتمعات التي نعيش فيها أقليةً، أشد حاجة إلى الاستقامة السلوكية، والالتزام الخلقي منالى المجتمعات الإسلامية الخالصة أو التي غالب أهلها مسلمون.

إن المسلم عندما يكون جزءًا من أقلية في مجتمع غالبيته غير مسلمين يكون هو المثل المضروب للإسلام، والمرآة التي يرى فيها مواطنوه صورة دينه. الناس في بلاد المسلمين يدركون ـ أكدرك أولو النهى منهم ـ أن المقصرين والمخطئين والمخالفين لتعاليم الثقافة الإسلامية وقيمها ليسوا حجة على الإسلام، ولا دليلاً ضده، ولا هم يمثلونه في سلوكهم المعوّج أو خلقهم غير السويِّ. لكن الناس في المجتمعات التي غالبيتها غير

مسلمين لا يعرفون من الإسلام إلا سلوك المنتمين إليه. والمسلم في هذه المجتمعات يثاب بقدر إحسانه إلى دينه وثقافته ويستحق اللوم والتثريب بقدر إساءته إليهما.

وذلك الإحسان واجب لا يتأتى أداؤه إلا بمعرفة مهمات الدين، وأصول أخلاقه، وأمهات قيمه، وكبائر محرماته، وعيون واجباته. ثم العمل بذلك كله عملاً يجعل الناس يرون في المسلم مثلاً يحبون الاقتداء به، وأسوة يحبون أن يكونوا على سَمْتها وصورتها. وهذا واجب على كل مسلمٍ يعيش حياته كلها أو بعضها في مجتمع غالبية أهله غير مسلمين. ولو قام به المسلم في هذه المجتمعات لبرئت ذمته من كثير مما عليه نحو دينه وثقافته وقومه ووطنه الأصلي.

***

وجامع ما تقدم أننا نحتاج، كي نصلح علاقتنا بالعصر الذي نعيش فيه، إلى تجديد العهد بثقافتنا الإسلامية، وتجديد العلم بها، وتجديد الثقة بصلاحيتها للعيش في ظلها، وبقدرتها على إصلاح جوانب كثيرة من واقعنا القبيح التِّعسِ، إن لم تكن قادرة ـ وما إخَالُها إلا كذلك ـ على إصلاحه كله.

وهذا الاحتياج يلبَّى في زمن غير قصير، وبعمل متراكم يُبنَى بعضه فوق بعض. وقد لا يسع عمْرُ الفرد إتمامَه. لكن الأمة الناهضة، والحركات الإصلاحية الواعية، قادرة على الوصول به إلى غايته، لاسيما إذا عرف اللاحق منها فضل السابق، وأخذ من تراثه صفوة أمره وترك

الاهتمام بكدره؛ وإذا تنبه المتعاصرون إلى أن المعاصرة حجاب، مانع من إدراك الفضل لأهله، فأزالوا هذا المانع برؤية المميزات والحسنات وتقديرها لأصحابها. وتنبهوا إلى أن المنافسة في الخيرات مجلبة للمحبة، ومدعاة للاحترام، وطريق إلى تقدير الغير لما في عمله من نفع خاص أو عام.

والثقافة الإسلامية التي نتحدث عنها تشمل كل مجالات الحياة، ولذلك تحتاج إلى جهود متنوعة لتوفيها حقها. ولا يستطيع القيام بالجهد كله فيها فرد، أو جماعة منظمة بل لابد من تعدد المعنيين بها وتنوع نشاطاتهم لأن كلاً مُيَسر لما خلق له وأعينَ عليه!

***

لقد تعودت أن أقول لإخواني وأبنائي في جمعية مصر للثقافة والحوار إننا نقوم ـ في برنامجنا: **معالم الثقافة الإسلامية**[٣٩] ـ بإنشاء عمارة يرتفع بناؤها عشرون طابقًا، ولا يسعنا أن نقف عند كل خطوة من خطوات البناء لننشغل بمن يخالفنا فنرد عليه، أو بمن يعتقد خطأنا لنصحح فكرته عنا. ولكننا معنيون بإتقان العمل في بنائنا، فإذا فرغنا منه جاز لمن شاء منَّا أن يشغل نفسه بما شاء بعد أن يكون قد استكمل عدته، وحصّل من أصول ثقافته ما يجعله أهلاً لنشرها، ولأن يتأسى الناس به فيها. واستجمع من الإيمان بها والفقه فيها ما يحصنه من عوامل الإغراء والإغواء التي يجتال الشياطينُ بها المؤمنين الحنفاء!!

(٣٩) بدأناه في مايو سنة ٢٠٠٠م ولا نزال مستمرين في حلقاته الأسبوعية حتى الآن بحمد الله.

والعمل في هذا البناء ليس مجرد تلق من محاضرين علماء، ولكنه أداء شخصي تزيد مساحته ويتسع نطاقه يومًا بعد يوم. وشعارُ كلٍّ مهتم بأداء واجبه فيه أنَّه على ثغرة من ثغور الإسلام وهو يحاذر الحذر كله أنْ يُؤتى دينه أو ثقافته من قبله.

وفي اليوم الذي يستشعر فيه الفرد هذا المعنى، ويفقهه، ويحياه ويَحْيى به لن يكون سؤال: **ما العمل؟** واردًا لأن العمل سيكون قد بدأ فعلاً.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

obeikandl.com

• من الآثار المطبوعة للدكتور محمد سليم العوّا

١ـ في النظام السياسي للدولة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٧٥، الطبعة التاسعة ٢٠٠٧، دار الشروق بمصر.

٢ ـ في أصول النظام الجنائي الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٧٩، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة ٢٠٠٧، دار نهضة مصر.

٣ ـ تفسير النصوص الجنائية، دار عكاظ، جدة ١٩٨١.

٤ ـ الأقباط والإسلام: حوار ١٩٨٧، دار الشروق ١٩٨٧.

٥ ـ العبث بالإسلام في حرب الخليج، الزهراء للإعلام العربي ١٩٩٠.

٦ ـ الأزمة السياسية والدستورية في مصر (١٩٨٧ ـ ١٩٩٠م)، الزهراء للإعلام العربي ١٩٩١.

٧ ـ أزمة المؤسسة الدينية في مصر، دار الشروق، ١٩٩٨.

٨ ـ الحق في التعبير، قراءة في قضية د. نصر أبو زيد، الطبعة الأولى ١٩٩٨، الطبعة الثانية ٢٠٠٣، دار الشروق.

٩ ـ الفقه الإسلامي في طريق التجديد، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧، سفير الدولية للنشر، مصر؛ الطبعة الرابعة، دار الزمن، المغرب، ٢٠٠٨.

١٠ ـ طارق البشري فقيهًا، دار الوفاء، القاهرة، ١٩٩٩.

١١ ـ الإسلاميون والمرأة، دار الوفاء، ٢٠٠٠.

١٢ ـ شخصيات ومواقف عربية ومصرية، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤.

١٣ ـ النظام السياسي في الإسلام، حوار مع الدكتور برهان غليون، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٤.

١٤ ـ للدين والوطن: فصول في علاقة المسلمين بغير المسلمين، دار نهضة مصر، الطبعة الثانية٢٠٠٧.

١٥ ـ القاضي والسلطان، دار الشروق ٢٠٠٦، مصر.

١٦ ـ بين الآباء والأبناء، تجارب واقعية، الطبعة الرابعة ٢٠٠٨، نهضة مصر، القاهرة.

١٧ ـ دور المقاصد في التشريعات المعاصرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٦، مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن.

١٨ ـ ثورة يوليو والإسلام، مكتبة الشروق الدولية، مصر ٢٠٠٦.

١٩ ـ العلاقة بين السنة والشيعة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦، سفير الدولية للنشر؛ الطبعة الثانية ٢٠٠٦ دار الزمن، المغرب.

٢٠ ـ الدين والدولة في التجربة المصرية، سفير الدولية للنشر، ٢٠٠٧.

٢١ ـ الحديبية، مكتبة وهبة، مصر ٢٠٠٧.

٢٢ ـ دراسات في قانون التحكيم المصري والمقارن، المركز العربي للتحكيم، بالقاهرة ٢٠٠٧.

٢٣ ـ الوسطية السياسية، المركز العالمي للوسطية، الكويت، ٢٠٠٧.

٢٤ ـ مقاصد السكوت التشريعي، مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن ٢٠٠٨.

٢٥ ـ أسرتنا بين الدين والخلق (حوار زياد دندن)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٨.